في ذلك العام بالذات ، دوخت باسل دوامة الوضع الطبقي الذي وجد نفسه فيه فخاض احدى معاركه المبكرة مع القوى السلبية الفاعلة في ذلك الوضع ... وكانت ساح القتال على ارض مصر .

اذ بعد ان انهى باسل مرحلة الدراسة الابتدائية ، أبعدته بحبوحة العيش ، في العام ١٩٤٥/١٩٤٦ الى « كلية فكتوريا » في الاسكندرية لمتابعة دراسته. وفي «الغربة»، في السن المبكرة تلك ، بدأت صراعات باسل مع باسل ... وكان لا بد من ايجاد اجوبة لأسئلة كثيرة حائرة ومحيرة :

أيسمح لرياح موقعه الطبقي ان تقود سفينة تحصيله العلمي الى شاطىء المؤسسات الاكاديمية الخاصة بابناء النخبة وعلية القوم ؟ أيسلم صفحة دماغه البيضاء لتلك المؤسسات كي تمسح عنها ما حفرته التأثيرات الوطنية في عائلته وتنقش عليها وشما من الثقافة الاستعمارية الغربية يلازمه الى الابد ويغدو معه « اجنبيا » وسط افراد عائلته وعشيرته وفي وطنه ؟ ثم والمسألة — كما شرحها باسل نفسه في جلسة حميمية — مسألة شعور وليست مسألة قرار فحسب . اذ كيف يستطيع ان يتجاهل حالة الاحتقان التي بدأ يعاني منها ولا يهرب من خطر الاختناق الداهم الذي كان يراه مندفعا — وبسرعة بالغة — باتجاهه ؟ ولماذا يبقى أسير السرب « النخبوي » والقفص «الفكتوري» اللذين « اعتقل » فيهما على يدي « شرطة » المترتبات الناجمة عن الموقع الطبقي الذي لم يختره هو ؟

وكان قرار باسل — وهو في سن لم تكن تؤهله لاتخاذ قرارات — حاسما بوضوحه : لا للعودة الى « كلية فكتوريا » ونعم للمدارس الحكومية ... **وهكذا قطع باسل بعض خيوط شبكة « العنكبوت الطبقي » المنسوجة حوله ... ومضى ، معتليا صهوة « مهر » عمله الوطني ، سائرا في الاتجاه الصحيح .**

باشر باسل دراسته المتوسطة في « كلية بغداد » في مناخ انفراج اشاعته حكومة توفيق السويدي (١٩٤٦) تحت ضغط « القوة الجديدة الصاعدة » . وقد كان قرار الحكومة في السماح بتشكيل الاحزاب بمثابة نزع سدادة « قمقم » العمل السياسي الشعبي واطلاق سراح « مارد » الطبقات الشعبية بصدارة الطبقة المتوسطة المسيسة. اما فظاظة حكومة أرشد العمري (التي جاءت في حزيران — يونيو ١٩٤٦) فلم تفشل في كسر « زنبرك » العمل السياسي الشعبي فحسب ، بل تورطت في ضغط ذلك « الزنبرك » — مضيفة الى زخمه زخما جديدا — ساعده ، لاحقا ، في الارتداد على السلطة الحاكمة بقوة أشد .

ومنذ نهاية العام ١٩٤٦ ، غدا باسل يتيما . فقد وافت المنية رؤوف الكبيسي في الثامن من كانون الاول (ديسمبر) ولم يكد يطرق باب الستين عاما . ومع ذلك لم يخلف الوالد الراحل وراءه طفلا . فباسل اليافع ، ابن الاربعة عشر ربيعا ، كان قد تخطى مرحلة « الطفل الجاد » (الجاد لدرجة انه لا يذكر — كما ان كل من عرفوه آنذاك لا يذكرون — مروره « بفترة طفولة » واضحة المعالم) الى مرحلة الشاب الرزين الذي لفتت رصانته المبكرة الانظار اليه واثارت الفضول من حوله وكانت محط تندره هو وتفكه مريديه الاقربين في وقت لاحق . كما اصبح واضحا ان شخصية باسل الآخذة بالتشكل النهائي كانت قد مالت بشكل حاسم ، بعد أن نجح في القفز من فوق مرحلة المراهقة ، نحو التأدب الشديد والحياء المرهف والتحلي ، اولا وقبل كل ميزة اخرى ، باخلاق « الفارس العصري » من شجاعة وكرم وشهامة . واما عيوبه البارزة فكانت في حدية هذه